الفصل الثالث

جوانب الجاحظ

١ ـ آثار الجاحظ

خلّف لنا الجاحظ مؤلفات كثيرة ما بين كتب ورسائل، وقد قيل إن آثاره هذه بلغت ما ينيف على ثلثمائة وخمسين كتاباً رأى أكثرها في مشهد أبي حنيفة النعمان ببغداد، سبط ابن الجوزي المتوفى سنة ٦٥٤هـ [١] وهي، وإن لم تكن كلها له، تؤلف موسوعة علمية وأدبية. ومما يؤسف عليه أنها لم تكن تصل إلينا كلها. فقد ضاع منها عدد يُذكر، وأما ما وصل إلينا منها فقد طبع معظمه ولا يزال بعضه مخطوطاً ومبعثراً في خزائن شتى بين الشرق والغرب.

وإنه لمن الصعب جمع تلك المؤلفات في مئات مرتبة على حسب مادّتها، لأن الكثير منها مختلف الموضوعات، متعدد المعاني. ومن ثم كان تقسيمنا التالي لآثار الجاحظ على وجه التغليب.

(١) في الفلسفة والاعتزال والدين:

ـ «كتاب الاستطاعة وخلق الأفعال» وضعه الجاحظ لتقرير مذهب الاعتزال، و «كتاب الاعتزال وفضله» ولعل هذا الكتاب هو المسمى أيضاً «فضيلة المعتزلة»، والذي ردّ عليه ابن الرّاوندي بكتابه «فضيحة المعتزلة»، و«كتاب خلق القرآن»، و«كتاب آي القرآن»، و «كتاب الرّد على اليهود»، و «كتاب الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير»، وهو يبحث في تعليل الأشياء الطبيعية وما في الكائنات من الدلائل على وجود الصانع إلخ . . .

---

(١) «مرآة الزمان»، الورقة ٥٨ من المجلد الثالث من الجزء العاشر (مصورة دار الكتب المصرية).

(ب) فى السياسة والاقتصاد :

— « كتاب الاستبداد والمشاورة فى الحرب » ، و « رسالة فى مناقب الترك وعامة جند الخلافة» ، و« رسالة فى الخراج» ، و« كتاب أقسام فضول الصناعات ومراتب التجارات» ، و« كتاب « الزرع والنخل والزيتون والأعناب » إلخ . . .

(جـ) فى الاجتماع والأخلاق :

— « رسالة فى إثم السكر». و« كتاب أخلاق الشطار» ، و« كتاب أخلاق الفتيان وفضائل أهل البطالة » ، و« كتاب خصومة الحُول والعُور» ، و « كتاب البخلاء » . . .

(د) فى التاريخ والجغرافية والطبيعيات والرياضيات :

— « كتاب الأخبار وكيف تصحّ » ، و « كتاب الملوك والأمم السالفة والباقية » ، و« كتاب الأمصار» . و« رسالة فى الكيمياء ». و« كتاب المعادن» ، و « كتاب نقض الطب » ، و« كتاب الحيوان » .

(هـ) فى العصبية وتأثير البيئة :

— « كتاب القحطانية والعدنانية »، و« كتاب العرب والعجم»، و« رسالة فى فخر السودان على البيضان » . و « كتاب مفاخرة السودان والحُمران » إلخ ...

(و) فى الأدب والشعر والعلوم اللسانية والأدبية :

— « كتاب البيان والتبيين » إلخ . . .

(ز) فى موضوعات شتى :

— « رسالة التَّرْبيع والتدوير » ، و « رسالة فى العشق والنساء » ، و« كتاب الإخوان » إلخ. . . .

• • •

تلك بعض آثار الجاحظ ، وإن من أجل النظر فى عنواناتها بلاحظ ما هنالك من سعة وتنوع . فهى تشمل العصر بكامله : فى سياسته ، وأخلاقه ، ونزعاته ، ومذاهبه ، وعلومه فى أصولها وفروعها ، وإننا نقصر درسنا على إحدى رسائل الجاحظ وهى « رسالة التربيع والتدوير » ، ثم على ثلاثة من كتبه هى : « البيان والتبيين » ، و « البخلاء » ، و « الحيوان » .

رسالة التربيع والتدوير[1]

هى رسالة كتبها الجاحظ فى هجاء أحمد بن عبد الوهاب ، فنعته بالعرض والضخامة دون الطول ، وفصل لذلك شكل التربيع والتدوير الذى سميت به الرسالة . وقد وصف ابن عبد الوهاب بأنه من بجيلة ومن أصحاب صالح بن على وسليمان ابن وهب وندماء جعفر الخياط ، وقال إنه من الرافضة المشبهة ، ونعته بأنه « يعدّ أسماء الكتب ولا يفهم معانيها ، ويحسد العلماء من غير أن يتعلق فيهم بسبب ، وليس فى يده من جميع الآداب إلا الانتحال لاسم الأدب ». وذكر أنه كان يُخاشنه ويطاوله . ولأجل ذلك كله أنشأ هذه الرسالة يتنادر بها على ابن عبد الوهاب ويصف ما هو عليه من دمامة الخلق وقبح التركيب والجهل ، ويُعاييه[2] بمئة مسألة يطلب إليه الجواب عنها . وقد ضمن أسئلته جميع معارف عصره المشكلة سواء فى المنطق والفلسفة ، أم فى الكيمياء والصنعة ، أم فى الإنسان والحيوان ، أم فى تاريخ العرب وتاريخ غيرهم من الأمم ؛ وقد أكثر فيها من الخرافات والأساطير .

وطبعت هذه الرسالة مع « رسالة فى مناقب الترك » ، و « رسالة فى فخر

---

(١) طالع المنتخبات ص ٩٤ .

(٢) عاياه : ألقى عليه كلاما لا يهتدى لوجهه .

السودان على البيضان »، بليدن سنة ١٩٠٣ ، ثم بمصر ضمن « مجموعة رسائل » سنة ١٣٢٤ هـ . ثم بمصر أيضاً سنة ١٩٣٣ فى « رسائل الجاحظ ».

(ا) قيمتها العلمية :

تتجلى لنا فى هذه الرسالة سعة اطلاع الجاحظ ؛ فقد استقى معلوماته فيها من تاريخ العالم عموماً وتاريخ العرب وأساطيرهم خصوصاً، ومن القرآن والحديث، ومن كتب الفلسفة والعلوم اليونانية والفارسية وغيرها . وقد ذكر المؤلف فى رسالته أهم القضايا الفلسفية والعلمية والتاريخية ، فعرض لمشكلة المعرفة ورأى أن الخطأ كثيرٌ غامرٌ ومُستول غالبٌ . والصواب قليل ، خاص ومقموعٌ مُستخفٌ ؛ وأن الحواس تخطئ وتُضل : « لَعمرى إن العيون لَتخطئ ، وإنّ الحواس لتكذبُ، وما الحُكمُ والقطعُ إلا للذهن ، وما الاستبانةُ الصحيحةُ إلاّ للعقل . . . » وعَرضَ لقضية أصل الإنسان وما بينه وبين القرد من تشابه ، وقضية الألوان فقال : « وخبرنى عن لون ذنب الطاووس ما هوَ ، أتقولُ بأنه لا حقيقة لهُ وإنما يتلونُ بقدر المقابلة ، أم تقولُ إنّ هُناكَ لوناً بعينه والباقى تَخييلٌ » . وعَرض لانتقال الصوت ، وللمد والجزر وأثر القمر فيهما « فإنما يكون الجزر والمدّ على مقاديرِ جَذبه للماء وإرساله له ». وعَرض للمرآة والصورة التى تعكسها أهى خيالية أم حقيقية ؛ وللقمر ومحاقه ، إلى غير ذلك مما يُدهش .

إلاّ أن هذه القضايا التى يُوردها الجاحظ ، لا يحلها فى هذه الرسالة ، وهو يحيل صاحبه فيها إلى سائر كتبه التى تعطيه حلا لكل شىء وتبرهن على سعة علمه . ثم إن الجاحظ يورد بعض تلك القضايا على سبيل التهكم ، ومن ذلك قضية إدراك الحواس مثلا ، فهو يذكر أنها تخطئ متهكماً . ومهما يكن من أمر فالرسالة مفعمة بالمعلومات فى مختلف فروع العلم ، مما يجعل للجاحظ محلا رفيعاً فى دولة المعرفة لتلك الأيام .

(ب) قيمها الأدبية الفنية :

وإلى جنب قيمة الرسالة العلمية نجد لها قيمة أدبية فنية كبيرة . فقد بلغ الجاحظ من سخريته بابن عبد الوهاب ما لم يبلغه كاتب ولا شاعر فى اللغة العربية من سخريته بشخص من الأشخاص .

أما أسلوبه الهجائى فلم يكن عن طريق السب والشتم ، بل عن طريق التهكم والسخرية اللاذعة . وهو يعمد فى سخريته إلى المفارقات والمتناقضات مستعيناً على ذلك بضروب من الجدل والاحتجاج والحوار ، وضروب من السفسطة والمغالطة والمقابلة بين الحقائق بعضها وبعض ، أو المقابلة بين الرجل وأشياء أخرى .

فبواسطة المفارقات والمتناقضات استطاع الجاحظ أن يشوّه جسم ابن عبد الوهاب وعقله ، ويصوره لنا تصويراً « كاريكاتوريًّا » مضحكاً ، فيقول مثلا : « ومن غريب ما أعطيتَ وبديع ما أوتيتَ أنا لم نَرَ مقدوداً واسع الجفرة[1] غيرك ، ولا رشيقاً مُستفيضَ الخاصرة سواك ! فأنتَ المديدُ ، وأنتَ البسيطُ ، وأنت الطويلُ وأنتَ المتقاربُ ؛ فيا شعراً جَمعَ الأعاريض[2] . ويا شخصاً جمعَ الاستدارةَ والطولَ » .

ويأخذ الجاحظ بالحوار والجدل فيتسع فى فكرة الطول والقصر اتساعاً شديداً ، فيقف تارة فى جانب القصير فيحتج له ، ويقفُ تارة فى جانب الاعتدال ، وقد يقف فى جانب الطول ، ويدلى فى كل ذلك بالحجج والبراهين كأنه يناقش مسألة علمية ، وكأنى بالجاحظ ، على حدّ قول « شوقى ضيف » : أحال أحمد بن عبد الوهاب إلى مشكلة من مشاكل الاعتزال أو قل إلى مشكلة

---

(١) الجفرة : جوف البطن وما وسع البطن والجنبين .

(٢) المديد والبسيط والطويل والمتقارب أسماء لبعض بحور الشعر . والأعاريض جمع عروض الجزء الأخير من الشطر الأول من البيت ، فيتلاعب الجاحظ بهذه الألفاظ فى معنييها موريا متهكما .

من مشاكل الفلسفة . .. إذ يتناوله مرة بالطول ومرّة بالعرض ، وهو أثناء تناوله يمدّه تارة ، ويقصره تارة أخرى ، وتارة ثالثة يبعجه[1] فى مناظر تستخرج منا الضحك على ما يصنع بصاحبه من تشويه ».

وهو يُكثر فى كل ذلك من السفسطات ، فيأخذ بحجج وأقيسة غير صحيحة ، وهو عالم بعدم صحّتها ، فيفصلها كالمؤمن بها ، ضاحكاً فى دخيلته من كلامه ، مثيراً معه الضحك ، وهكذا برهن الجاحظ فى هذه الرسالة عن فنّ رفيع ، ومقدرة فلسفية عجيبة ، وبيان شحذته الثقافية . ولباقة فى الحديث نادرة . ولكن حديثه كثير التكرار والاستطراد .

كتاب البيان والتبيين

(ا) ما هو :

هو كتاب فى الأدب من آخر ما ألف الجاحظ ، يتضمن مختارات من الأدب من آية قرآنية أو حديث أو شعر أو حكمة أو خطبة ، ممزوجة بماله من آراء فى مسائل مختلفة . قدّمه الجاحظ إلى القاضى أحمد بن أبى دُؤاد . وزعم ياقوت أن المؤلف وضع من هذا الكتاب نُسختين كانت الثانية منهما أصحّ وأجود . وقد طبع الكتاب فى مصر سنة ١٩٢٦ فى ثلاثة أجزاء .

(ب) أقسامه :

تشيع فى هذا الكتاب ، كما فى سائر كتب الجاحظ ، فوضى فى التأليف ، لا نستطيع معها حصر موضوعاته فى أقسام متسلسلة ؛ فسنكتفى بإيراد خلاصة ما فى أبواب الكتاب من موضوعات . فالجاحظ يمزج فى كتابه علوم البلاغة بالأدب والتاريخ .

أما ما يرجع إلى البلاغة فكلام على ماهية البلاغة ، وعلى نعمة الفصاحة ،

---

(١) بعج البطن شقه .

ثم على عيوب اللسان والعي[١] ، كاللحن[٢] ، واللكنة[٣] ، والفأفأة[٤] ، والتمتمة[٥] ، والتشدق[٦] ، والتقعير[٧] ، والتقعيب[٨] . ويلحق بالبلاغة أيضاً الكلام على الخطابة وعيوب الخطيب من نحنحة[٩] وسعلة ، والأسنان وعلاقتها بالخطابة ، ويلحق كذلك بالبلاغة ما يرجع إلى موسيقى الكلام من حروف وألفاظ متنافرة ، ومن سجع وما إلى ذلك .

وأما ما يرجع إلى الأدب فإيراد الكثير من كلام العرب فى العهد الراشدى والأموى والعهد العباسى : من شذرات مأثورة منتقاة ومن خطب بليغة . أما ما يرجع إلى التاريخ فكثير من أخبار الخطباء والعلماء والأمراء والكهان والنساك وغيرهم .

(ج) قيمته التاريخية :

فى هذا الكتاب تظهر نزعة الجاحظ العربية ، فهو يرد على الشعوبية ، ويكثر من إيراد ما للعرب من مظاهر البلاغة ؛ فهو فى موقف معاكس لزعماء الثورة التجديدية ، وهو مع ذلك يضيف فى كتابه إلى الثقافة العربية الواسعة عناصر مختلفة مما تقدمه الثقافات الأخرى اليونانية والفارسية والهندية وغيرها ، حتى يمكننا القول إن كتابه مزيج من ثقافات مختلفة تغلب عليه الثقافة العربية ، فهو يعرض آداب العرب والفرس ، وحكم الهنود ، ونصائح اليهودية والمسيحية ،

---

(١) العى : الحصر فى المنطق أى عدم الإفصاح .
(٢) اللحن : الخطأ فى الإعراب ومخالفة وجه الصواب .
(٣) اللكنة : الثقل فى اللسان .
(٤) الفأفأة : الإكثار من الفاء فى الكلام والتردد فيها .
(٥) التمتمة : التعجيل فى الكلام من غير إفهام .
(٦) التشديق : هو أن يلوى المتكلم شدقه للتفصح .
(٧) التقعير : إخراج الكلام من الحلق .
(٨) التقعيب : إخراج الكلام من قعر الحلق .
(٩) النحنحة : تردد الصوت فى الصدر .

وهو يتكلم على مذهب الناسخ[١]، وينقل أقوالا لداود والمسيح ، ويذكر عادة الرهبان فى اتخاذ العصا وعادة الجاثليق[٢] فى اتخاذ القناع والمظلة والعكاز والعصا ، كما يذكر أن للهنود كتباً فى الحكم والأسرار ، وأن لليونان منطقاً يُعرف به الخطأ من الصواب ، إلى غير ذلك من المعلومات الواسعة .

(د) قيمته الأدبية :

لا شك أن كل فصل من فصول الكتاب فوضى لا تُضبط واستطراد لا يُحدّ ، فالجاحظ لا يرعى للوحدة التأليفية نُظماً ولا يُقيم لها وزناً ، إلاّ أن للكتاب قيمة حقيقية جعلت له محلا خاصًّا ما بين أصول فنّ الأدب وأركانه حتى قال ابن خلدون : « سمعنا من شيوخنا فى مجالس التعليم أن أصول فن الأدب وأركانه أربعة دواوين ، وهى : أدب الكاتب لابن قُتيبة ، وكتاب الكامل للمبرِّد ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب النوادر لأبى على القالى ، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها »[٣].

كتاب البخلاء

(١) ما هو :

هو كتاب طريف جمع فيه الجاحظ أخبار البخلاء و « المقتصدين » ، فصور حالاتهم المختلفة كما شاهدها أو بلغه خبرها ، مورداً طرائف مشاهيرهم ،

---

(١) « التناسخ » : مذهب القائلين بانتقال الروح من شخص إلى شخص ثواباً أو عقاباً وبأن الجنة والنار فى هذه الأبدان .

(٢) الجثليق والجاثليق : متقدم الأساقفة جمعه : جثالقة .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٥٥٣ طبعة بيروت .

متندراً بمُلح[1] البخلاء من العلماء والأدبا ، مثبتاً ما يلحق ذلك من مناظرات بين الكرَم والبخل وغير ذلك من الفوائد عن آداب العرب وعاداتهم فى مآدب الضيافة . وقد صدر الكتاب برسالة سهل بن هارون فى البخل . طُبع كتاب البخلاء مراراً وكان أول من طبعه المستشرق فان فلوتن « Von Vloren » وذلك فى ليدن سنة ١٨٩٠ ثم طبع بمصر ثم بدمشق سنة ١٩٣٨ . وفى سنة ١٩٤٧ تولى طه الحاجرى طبعة علمية جديدة للكتاب .

(ب) الباعث على وضع الكتاب :

يذكر لنا الجاحظ فى مقدمة كتابه أن ما حمله على وضعه هو الفائدة التى أدّاها كتاب له آخر عنوانه : « تصنيف حِيَل لصوص النهار وتفصيل حيل سُرّاق الليل » ، فقد سدّ به الناس كل خلل وحصنوا به كل عورة ؛ ويذكر أن أحد أصدقائى سأله أن يفصّل « نوادر البخلاء واحتجاج الأشحّاء ، وما يجوز من ذلك فى باب الهزل ، وما يجوز منه فى باب الجد » ليجعل الهزل مُستراحاً ، والمزاحة جَماماً .

ويذكر الجاحظ أن الذى يساعده على توفير مادة الكتاب « مُلح الحزامىّ » واحتجاج الكندىّ ، ورسالة سهل بن هارون ، وكلام ابن غزوان ، وخطبة الحارثىّ ، وكل ما حضره من أعاجيبهم وأعاجيب غيرهم ، واحتجاجهم للبخل ، وشذوذ البخلاء فى تفكيرهم ، إلى غير ذلك مما لم يكن بُدٌّ من تقويمه وتوضيحه ، حتى يكون من الكلام فائدة للبصير ، ودرس للبيب .

(ح) مضمون الكتاب :

أراد الجاحظ أن يفتتح الكتاب بنظرة عامة على نفسية البخلاء جعلها مقدمة بين يدى موضوعه ، « فهو يعجب شديد العجب ممن قد فطن لبخله ،

---

(١) الملح جمع ملحة : ما لذ واستملح من الأحاديث .

وَعرف إفراطَ شحه، وهو فى ذلك يُجاهد نفسهُ ويُغالب طبعهُ ، ولربما ظَن أنْ قدْ فطنَ لهُ وعُرف ما عنده ، فهوَ شيئاً لا يَقبلُ التمويه ، ورقعَ خَرقاً لا يقبلُ الرّقعَ ، فلو أنّهُ ، كما فطنَ لعيبه وفطن لمنْ فطنَ لعيبه ، فطن لضعفه عن علاج نفسه . . . . وَعن استرجاع ما سَلفَ منْ عاداته ، . . . لتركَ تكلف مالا يستطيعهُ . . . » . والجاحظ يذكر ، فضلا عن تمويه البخلاء ، فطنتهم لعيوب غيرهم ، ويقول : « فما بالهُ (البخيلُ) يفطنُ لعيوب الناس إذا أطعموه، ولا يفطنُ لعيب نفسه إذا أطعمهمْ ، وإن كان عيبه مكشوفاً، وعيبُ مَنْ أطعمهُ مستوراً » .

وبعد هذه المقدمة يُثبتُ الجاحظُ رسالة سهل بن هارون فى البخل وفيها رُدود الرجل على بنى عمه من آل راهيون الذين ذموا مذهبه فى البخل وتتبعوا كلامه فى الكسب :

ثم ينتقل الجاحظ إلى موضوع كتابه فيبدأ بقصة أهل خراسان ولا سيما أهل مرو ، وإذا البخل فى أهل مرْو طبعٌ ، وإذا ديوكهم نفسها تسلبُ الحبَّ من مناقير الدّجاج ، ويُتبع قصة أهل خراسان بقصة أهل البصرة من المسجديّين ، وقصص زبيدة بن حميد الصوفى ، وليلى الناعطية ، وأحمد بن خلف ، وخالد بن يزيد ، وأبى جعفر ، والخزامىّ ، والحارثىّ ، وغيرهم .

ثم يُثبتُ الجاحظ رسالتين إحداهما من أبى العاص إلى الثقفىّ فى ذمّ البخل ومدح الكرم ، والأخرى جواب ابن التوأم على رسالة الثقفىّ فى إظهار مفاسد البذل وما إلى ذلك .

ويختم كتابه بكلام على أطعمة العرب .

(د) الكتاب ودراسة الأخلاق :

أول ما يلاحظ فى هذا الكتاب أنّ صاحبه قصر همّه على ناحية واحدة من نواحى الأخلاق هى البخل ، وأنه مع ذلك أنشأ كلاماً طويلا مما يدل على

سعة إدراك الرجل، ودقة ملاحظته لأعمال الناس التى تُخبر عن نفسيّتهم وأميالهم، والتقاطه لأدقّ حركات البخلاء، ولكن الأسلوب فى كلامه لم يكن أسلوب مَنْ يقدّم فى أشخاصه رموزاً إلى كل منْ أحبّ وعلق المادّة، ومُثلا شاملةً عامة؛ فالجاحظ يعرض علينا قصصاً وروايات متتابعة من غير ما ترتيب فنىّ يكوّن وحدة تأليفية.

وليست غاية الجاحظ فى كتابه الهجاء لمجرد الهجاء، وإن حوى كلاماً على الكرم والبخل وحجج هذا وذاك، إنما غايته إصلاح تلك الفئة من الناس التى اتخذت البخل مذهباً تؤيده عن عقيدة أو عن تمويه. وهو: إن ذمّ البخل وأوضح مفاسده، لا يغفل عن تحسين الاقتصاد. وأشخاص الجاحظ فى كتابه أحياء يتحركون، ويتكلمون بلغة هى لغتهم؛ ويكشفون لنا عن أنفسهم. وهم عادة أصحاب جَدل ومنطق، يلجأون إلى البراهين المختلفة والسفسطات[1] التى تضحكنا من حيث تقنعهم أو تظهر أنها تقنعهم.

وبخلاء الجاحظ هم من «طيّاب البخلاء» لا تشمئز النفس منهم ولا تُمل قراءة أخبارهم، فقد عرف الجاحظ أن يبث فيهم من خفة روحه، وأن يجعل نكته على لسانهم، ويبرّئهم من التعدّى الذميم على مال غيرهم مهما اشتد حرصهم على ما لهم؛ لا بل يوضح من اقتصادهم أحياناً ما يُحمد وما يعتمد عليه فى تدبير المنزل[2].

(٥) الفائدة التاريخية:

يُطلعنا الكتاب على ناحية من نواحى المجتمع العباسى ولا سيما مجتمع البصرة وخراسان؛ ويفصل لنا طرق العيش فى تلك الفئة من الناس، وأساليب كلامها، ثم يمتدّ إلى كثير من عادات العرب ومأكلهم وأمثالهم وأخبارهم، وإلى بخل الروم، وغش الفرس، وغير ذلك مما يطول سرده.

---

(١) السفسطات جمع سفسطة: الاستدلال والقياس الباطل يقصد به تمويه الحقائق.

(٢) طالع قسم المنتخبات ص ٧٠ — ٨٠.

كتاب الحيوان

(أ) ما هو .. وما غاية المؤلف من وضعه ؟

يشتمل هذا الكتاب على وصف طبائع الحيوان ، وقد أودعه صاحبه كل ما شاء إيداعه من الحكمة والأدب والظرف ، ودوّن فيه كلّ ما تفرق فى كتب العلم والأدب ، وما انتشر على أفواه الناس من الأشعار والأقوال ، والأحكام والأسماء ، عن الحيوانات وعلاقتها ببنى الإنسان ، وذكر الجاحظ فى مواضع عدة من الكتاب وما فى طبائع الحيوان من الحجج على حكمة الله العجيبة وقدرته الباهرة .

وطُبع الكتاب مراراً فى عدّة أجزاء تختلف عدداً باختلاف طبعاته ، طبع بمصر فى سبعة أجزاء سنة ١٩٠٧ ، ثم طبعة أخرى أنيقة حقق الكتاب فيها وشرحه عبد السلام محمد هارون سنة ١٣٥٧ هـ . (١٩٣٨ م).

(ب) مصادر المؤلف فى وضع كتاب الحيوان :

إن المراجع التى لجأ إليها الجاحظ فى وضع كتابه ، الحيوان ، كثيرة حتى ليصعب الإتيان على ذكرها كلها . فقد برهن المؤلف فى هذا الكتاب على معارف واسعة . واطلاع نادر على جميع الثقافات المعروفة لزمانه من عربية ويونانية وفارسية وهندية ، وعلى جميع الديانات وتعاليمها من مانويّة وزرادشتيه ودهريّة ، ويهودية ونصرانية وإسلامية ، وعلى جميع الفرق والنزعات .

أما مصادر الجاحظ الأجنبية فهى كتب أرسطو أولا[1] ، ولأرسطو كتاب فى الحيوان يقع فى تسع عشرة مقالة ، نقله ابن البطريق ، ولخصه غيره . ولم يقتصر الجاحظ على أرسطو بل نقل أيضاً عن أقليمون صاحب الفراسة فى الكلام على الحمام ، وعن جالينوس فى ما يصلح له لحم الضبّ ، وفى معارف

(١) طالع المنتخبات ص ٥٤ .

البهائم والطير . ونقل عن الفرس وتكلم على أساطيرهم ونيرانهم . ونقل كذلك عن اليهود والنصارى أموراً كثيرة تتعلق بديانتهم .

(ـ) مضمون الكتاب :

لم يقتصر الجاحظ فى كتابه على طبائع الحيوانات ، بل شطّ عن موضوعه وغايته ، وأخرج كلامه مخرج الشمول العلمى والأدبى ، فضمنه معلومات واسعة فى الحيوان وغير الحيوان ، ومزج الجدّ بالهزل ، والعلم بالأدب ، والفكاهة بالمجون ، مزجاً غريباً[1] .

وقد جعل الجاحظ كتابه فى سبعة أجزاء :

الجزء الأول : يتضمن مقدمة رد فيها الجاحظ على من انتقد كتبه التى ذكر منها ما يزيد على الأربعين كتاباً ، ثم انتقل إلى تفصيل فضل الكتاب وضرورة اقتنائه . وما إن انتهى من مقدمته حتى انتقل إلى باب الخصاء ومنافعه وجعله توطئة للكلام على الحيوان الذى ذكر منه الكلب والديك .

الجزء الثانى : يتضمن تتمة الكلام على الكلب .

الجزء الثالث : يتضمن كلاماً على الحمام وطبائعه ، وعلى الذباب ، والغربان وغيرها . وفيه استطرادات إلى صدق الظنّ والفراسة والجنون .

الجزء الرابع : يتضمن كلاماً على الذرّة ، والنمل ، والقرد ، والخنزير ، والحيات ، والظليم[2] ، ومن استطرادات هذا الجزء الكلام على النيران بأنواعها : ما كان منها للعرب وما كان منها للعجم ، وما كان للديانات وما كان لغير الديانات .

الجزء الخامس : يُقسم هذا الجزء قسمين : يتضمن القسم الأول تتمة الكلام على النار ، وتفسير بعض الآيات ، ثم ما قيل من مديح فى النصارى واليهود والمجوس والأنذال وصغار الناس . ويتضمن القسم الثانى كلاماً على بعض

---

(١) طالع المنتخبات ص ٨٧ – ٩٣ .

(٢) الظليم : الذكر من النعام .

الحيوان كالفأر والجرذان والسنانير وغيرها ، وعلى الفرق بين الإنسان والبهيمة ، والإنسان والسبع .

الجزء السادس : يتضمن تفسيراً لقصيدة البهرانيّ فى الحيوان ، ولقصيدتى بشر بن المعتمر ، وكلاماً على الثأر عند العرب ، وعلى الجبان ، وإلى جنب ذلك يتكلم على بعض الحيوان كالهدهد والتمساح والأرانب وغيرها .

الجزء السابع : يتضمن هذا الجزء برهاناً على ما رمى إليه الجاحظ من وضع الكتاب : أعنى إظهار حكمة الله وقدرته الباهرة ، ففيه إظهار ما امتاز به الحيوان من الحكمة العجيبة ، وما ألهمه الله به من المعرفة ووهبه من الجبن والجرأة ، وأشعره من الفطنة بما يحاذر به عدوّه . ولا يخلو هذا الجزء أيضاً من الكلام على بعض الحيوانات كالفيل والزرافة وغيرهما .

(د) قيمته الأدبية :

لن نبحث هنا فى فن الجاحظ الكتابى لأننا سنفرد له محلاً خاصاً ، وإنما نقصر كلامنا على أسلوب الجاحظ التأليفى فى كتاب الحيوان ، فهو يقول فيه : « متى خرجَ (القارئ) من آى القرآن صارَ إلى الأثر ، ومتى خرجَ من أثر صار إلى خبر ، ثمّ يخرج من الخبر إلى الشّعر ، ومن الشعر إلى نَوادر ، ومن النوادر إلى حكم عقلية ومقاييس سَداد ، ثمّ لا يترك هذا الباب ولعله يكون أثقلَ ، والملالُ إليه أسرعَ حتى يُفضى إلى مَرح وفكاهة وإلى سُخف وخرافة ، ولستُ أراهُ سُخفاً » .

وهو يقول أيضاً : « إنى أوَشحُ هذا الكتابَ بنوادرَ من ضروب الشعر ، وضُروب الأحاديث ، ليخرجَ قارئه من باب إلى باب ، ومن شكل إلى شكل ، فإنى رأيتُ الأسماع تمل الأصواتَ المطربة والأغانى الحسنة ، والأوتارَ الفصيحةَ إذا طال ذلكَ عليها ، وإذا كانت الأوائلُ قد سارتْ فى صغار الكتب هذه السيرة ،

كانَ هذا التدبير لما طالَ وكثرَ أصلح ، وما غايتنا من ذلكَ كله إلاّ أن تستفيدُوا أخيراً » .

فالجاحظ من ثم أستاذ يريد أن يلقى على العالم العربىّ دروسه ، وهو يريد أن يستفيد سامعوه خيراً ، فيجعل همه كله فى إساغة ما يقول ، وإرساله على الطرق التى تبعد الملل ، حتى تنفتح له القلوب ، وتتفهمه العقول ، وهو من ثمّ يرى النقل من موضوع إلى موضوع ، والاستطراد ، ومزج الجدّ بالهزل ، خير طريق إلى الأفهام ، ولذلك نراه يخلط دائماً جدًّا بهزل ، ويسيغ اللقمة الجافة بكثير من الحلوى ، وإن كثر فيها الإحماض والمجون المكشوف .

ذلك أسلوب الجاحظ فى كتاب الحيوان ، وهو يأسف على سلوكه هذا السبيل ، ولكنه لا يرى مناصاً منه ، فيقول : « ولولا سُوءُ ظنى بمنْ يُظهرُ التماسَ العلم فى هذا الزمان ويُظهرُ اصطناعَ الكتب فى هذا الدهر لما احتجتُ إلى مداراتهم واستمالتهم ، وترقيق نفوسهم وتشجيع قُلوبهم مَع فوائد هذا الكتاب — إلى هذه الرّياضة الطويلة وإلى كثرة هذا الاعتذار ، حتى كأنّ الذى أفيدُهُ إياهم أستفيدُهُ منهم ، وحتى كأنّ رغبتى فى صلاحهم رغبةُ مَنْ رَغب فى دنياهم » . والجاحظ يعترف بأنه عانى فى هذه الطريقة أكثر مما قد عانى لو كتب كتاباً فى موضوع واحد من غير استطراد .

ليس للكتاب إذن من وحدة تأليفية ، فالمؤلف يراعى فيه هوى قارئيه لا قواعد المنطق والعقل ؛ فكان فيه عالماً وأديباً يرضى العلم والبلاغة ، كما كان معتزليًّا يرغب فى الجـدل والمناظرة ، حتى إذا لم يجد مَن يناظره خلق شخصين يتناظران فى مسألة يريد الكلام فيها ؛ فإذا تكلم على الكلب والديك مثلا خلق لكل منهما صاحباً يذكر فضائله وفوائده ، ويستشهد على ما يقول بالأخبار القديمة والأقاصيص وبما ورد فى التوراة والإنجيل والقرآن والحديث ..

(٨) قيمته التاريخية :

من استقراء موضوعات الكتاب تتجلّى لنا قيمته التاريخية ، فهو خزانة معلومات كثيرة الأصول والفروع ، تتناول تاريخ العرب وغير العرب ، وثقافتهم ، وعاداتهم وديانـاتهم وأحوالهم الاجتماعية مما يؤلف مجموعة واسعة من الحقائق التى أعمل فيها الجاحظ عقله وروحه النقديّة ، وأبرزها بقدر ما استطاع من تدقيق وتحرّ .

اختلف النقاد فى قيمة الجاحظ العلمية ، فمنهم من عدّ الرّجل عالمًا من أكبر العلماء ، ومنهم من حطّ من شأنه العلمى . والحقيقة أن الجاحظ عالم وإن غلبت عليه الصبغة الأدبية ، ولكن علمه لا يخلو من أضاليل لضعف الوسائل العلمية لأيامه . فقد تناول الموضوعات العلمية واتبع أصول العلم فى التحقيق ، يحفزه على ذلك روحه المعتزلية التى تجعل العقل فى أساس البحث كما يحفزه مثل أستاذه النظام إلى الروح العلمىّ فى ذلك العهد وحامل لواء العقل .

موضوعات الجاحظ العلمية هى ما أدركناه فى دراسة أبواب الكتاب . وقد كان الكتّاب إلى ما قبل ظهور الجاحظ يصرفون همّهم إلى الاختصاص بالضرب الواحد أو الضربين من أنواع العلوم ، أما الجاحظ فلم يتخصص ، بل شاء أن يكون (دائرة معارف) تحيط بأكثر ما عُرف من علوم الإنسانية وآدابها حتى عهده وأن يزيد عليها . وفى كتاب الحيوان أكبر شاهد على ذلك .

وأصول تحقيق الجاحظ ، هى الأصول العلمية[1] . وقد قال فى مقدمة كتابه :

« هذا كتاب تستوى فيه رغبةُ الأمم ، وتتشابهُ فيه العربُ والعجمُ ، لأنهُ وإنْ كانَ عربيًّا أعرابيًّا ، وإسلاميًّا جماعيًّا ، فقد أخذَ من طرف الفلسفة ، وجمع معرفة السماع وعلمَ التجربة ، وأشرك بين علم الكتاب والسنة ، وبين

---

(١) طالع المنتخبات ص ٥٧ — ٦١ .

وُجدان الحاسة وإحساس الغريزة » .

فهو إذن يعتمد الحواسّ والعقل فى درك الأمور . فالعنصر الأول من عناصر تحقيقه هو المعاينة يضم إليها التجربة والفرض والمقابلة والتصنيف . وكل قول فى نظره « يكذبهُ العيانُ فهو أفحش خطأ ، وأسخف مذهباً وأدلّ على معاندة شديدة ، أو غفلة مفرطة » .

أما التجربة فكان الجاحظ يعمد إلى طرق مختلفة منها : فتارة يقطع أعضاء الحيوان ، أو يلقى على الحيوان ضرباً من السمّ ، وتارةً يذبح الحيوان ويفتش جوفه وقانصته »[1] وطوراً يجمع أضداد الحيوان فى إناء ليعرف تقاتلها ، وطوراً آخر يلجأ إلى إحدى موادّ الكيمياء ليعلم تأثيرها فى الحيوان .

وأما معرفة السماع فكان الجاحظ يلجأ إليها ، ويتردد على أهل المعرفة من زمانه ويعمد إلى كتب أرسطو وغيره . ولكنه كان يعمل فى ذلك تمييزه ، فيناقش ويحاول تحقيق ما يسمع ، فتارة يسمع الخبر فيثبته كما هو ، وتارة ينفى الشبهة عمن يأتيه بالخبر ، وحيناً يكذبه ، وحيناً آخر يعجب لقوله إذا لم يجد سبيلا إلى التحقيق .

والجاحظ يجمع إلى معونة الحواسّ معونة العقل ، ويقول : « فلا تذهب إلى ما تريك العينُ ، واذهب إلى ما يُريك العقلُ ، وللأمور حُكمان : حُكم ظاهرٌ للحواسّ وحُكمٌ باطنٌ للعقول ، والعقلُ هو الحجةُ » . وبهذا وذاك كان الجاحظ تلميذاً للنظّام الذى كان يعتبر الشك أساساً للبحث ، والذى عمد إلى التجربة واستخدم المنطق فى البحث عن الحقائق . فكان الجاحظ يجعل الشك سبيلا إلى اليقين ، ويقول : « لا أعرف مواضع الشك والحالات الموجبة لهُ لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة لهُ » . ولم يكن الشك عنده هياماً بالشك بل كان طريقاً إلى المعرفة .

---

(١) القانصة للطير كالمعدة للإنسان .

والجاحظ يضيف إلى الشك النقد العلمى ، وهو مُغرم بالتنبيه على الخرافات والنيل من أصحابها. وقد نال بنقده طائفة من العلماء ومنهم أرسطو . فأخذ على هذا الأخير أنه لم يعتمد فى تحقيقه على العيان والسماع والامتحان ، وأنه إذا تكلم ، فى بعض الأحيان ، على حيوان لا يستوفى عجائبه . ولم يكن نقد الجاحظ رغبة فى النقد بل كان طريقاً إلى دَرْك الحقيقة .

* * *

تلك قيمة الجاحظ العلمية كما تتجلى لنا من كتاب الحيوان . إلا أن علم الجاحظ يعتوره كثير من الأوهام والضلال التى نجدها عند سائر العلماء الأقدمين. وقد فات الجاحظ روح الترتيب فى ما خبره وعاينه ودوّنه ، كما فاتته قدرة العالم على التعميم واستنباط القوانين العامّة ، والتمكن من إنشاء المقاييس العلمية .

٢ ــ فن الجاحظ

ليس الجاحظ بالرجل الفسيح الخيال ، ولا هو برجل العاطفة التى تستبد بجميع كيانه ، بل إنما هو رجل الاعتزال ، أى رجل العقل والجدل ، يتطلب الحقيقة بكلّ قواه ، ويبحث طويلا فى سبيل الحصول عليها . ثم يسعى جهده للتعبير عنها تعبيراً بيناً يظهر جميع دقائقها قريبة إلى الأفهام .

ولأجل ذلك نرى الجاحظ يعدل عن أساليب المجاز ما استطاع ، وإن عمد إلى شىء من التشبيه والاستعارة فما ذلك للزخرف وتطلّب الصنعة ، ولكنه لوضوح الإبانة بطريقة واقعية محسوسة . ومن ثم فاستعاراته وتشبيهاته بعيدة كل البعد عن التعقيد والإغراب ، قريبة كل القرب من الأفهام . قال يصف حية رمال بَلعنبر : « . . . غمست هذه الحية ذَنبها فى الرمل ، ثم انتصبت كأنها رمحٌ مَركوزٌ أو عُودٌ ثابتٌ » . فالتشبيه حسىّ ، سهل المأخذ لا يحتاج إلى تفكير ولا إلى تخيل عميق .

ثم إن الجاحظ ـ شأن الأستاذ الحاذق ـ يراعى أبداً مقتضى الحال . فهو خبير بنفسية الإنسان ومفتّنٌ ماهر ، لا ينسى من يضع لهم كتبه ، ولا يغفل عن الأحوال المكانية والزمانية . فتراه لذلك يتحدث إلى قارئيه بأسلوب طبيعى بعيد عن الضعة والتمويه ، فترى عبارته تمتد تارة وتنقبض أخرى ، تُرسل تارة إرسالا من غير تمويج ولا تقطيع ، وتُقطع تارة أخرى تقطيعاً موسيقيًّا ، وموسيقاها هى موسيقى التقطيع الطبيعى الماهر ؛ وترى أسلوبه ينزع نزعة الحياة الحرّة الطليقة التى تروق أبناء العصر ، ويميل عن جفاف الأسلوب العلمى المجرد ، ويسترسل فى الاستطراد والاستشهاد والجدل ، ويعمد إلى الهزل فى مواطن الجدّ ، فإذا نفس الكاتب الخفيفة الظلّ ، المطبوعة على الدعابة والمزاح ، تتراءى فى كل حال وكل مقال ؛ وإذا جفاف العلم يلينه السرور ، وإذا السرور تبعثه نادرة غريبة ، أو فكرة لطيفة ، أو ترحم هازئ ، أو ما إلى ذلك من ضروب الهزل . ولا شكّ أن ذلك الاستطراد وما يتبعه من ضروب مراعاة الأحوال يلحق ضرراً بالوحدة التأليفية ، والمنطق العلمى ، ولكنه يروق أبناء العصر ، ويروج المصنفات ، ويُفهم الحقائق ويفسرها ، والجاحظ لا يطلب غير ذلك .

ثم إن لغة الجاحظ ، هى اللغة التى يقتضيها العقل ويطلبها التعبير عن الحقيقة . فالجاحظ يرمى إلى الإفهام ، وإلى استعمال الألفاظ التى تجلو المعانى عن طريق الحقيقة فهو يقول : «ليس الكتابُ إلى شىء أحوج منه إلى إفهام معانيه حتى لا يحتاج السامعُ لما فيه ، إلى الروية ؛ ويحتاجُ من اللفظ إلى مقدار يرتفعُ به عن ألفاظ السفلة والحشوة[1] ، ويُحطه من غريب الأعراب ووحشىّ الكلام » .

فمذهبه من ثم واضح ؛ وقد جرى عليه ، فكانت ألفاظه دقيقة ، واضحة الأداء ، واقعية حسية ، بعيدة عن الخشونة والغرابة ، يُحسن تصيدها ، فيقدر

(١) سفلة القوم : أسافلهم . والحشوة منهم : أرذالهم .

اللفظة بجرسها ورنتها وما ينتظر من تأثير توقيعها وتلحينها إذا قرنت إلى أختها ، ويميز الثقيلة والخفيفة ، والمأنوسة والوحشية ، فيختار ما يؤدى معناه حق الأداء وينزله فى منزله ، ولا تعصيه كلمة مهما دق موضوعه ، ولا يطوى لسانه على معنى فى قلبه لا يتسنى له إبرازه بالنطق أو تمثيله باللفظ . وكان الجاحظ نحاتاً وبنّاء فى آن واحد ، ينظر إلى شيئين فى ألفاظه : الدقة والموسيقى . ومن ثم شاعت العذوبة فى كلامه . إلا أن تلك السهولة وتلك الدقة لا تخلوان أحياناً من غموض ينجم عن التباس الضمائر فلا يعرف إلى من ترجع لتعاقبها ؛ ويعمد الجاحظ أحياناً إلى ألفاظ أعجمية وعامية مراعاة لمقتضى الحال .

ومهما يكن من أمر فالجاحظ مصور بارع ، يصور بجمله وألفاظه ، فيذكر الدقائق والتفاصيل بأوضاعها لا بسلسلة تصويرات أو تشبيهات أو ما إلى ذلك ، وهو فى كل ذلك رجل الواقع لا يحيد عنه فى حال من الأحوال .

٣ ـ منزلة الجاحظ

(ا) مدرسة الجاحظ الكتابية :

يُعدّ الجاحظ رأس المدرسة النثرية الثانية فى الأدب العربى ، وقد كان عبد الحميد وابن المقفع رأس المدرسة الأولى . وإن فى أسلوب المدرسة الثانية نزعة إلى الطراوة الملائمة لتقدم الحضارة ، وميلا إلى الإسهاب والإطالة الملائمة للرجل المتحضر ، ورجوعاً إلى العرب والاستقاء من ينابيع أدبهم ، وتكييف أساليبهم لتماشى المدنية والثقافة ؛ والشغف بالمنطق كلما دعت إليه الحال .

(ب) آثار الجاحظ صورة لبيئته :

شبّ الجاحظ فى زمن الرشيد ، ونبغ فى عهد المأمون ، وقد امتاز عصره بحرّية الفكر ، فصوّر الجاحظ تلك الحرّية بواقعيتها ، وظهرت فى علمه ، وفى دينه ، وفى أدبه .

أما فى علمه فقد ظهرت فى تحقيقه العلمى ، وفى نقده وشكه وحججه ؛ وأما فى دينه فظهرت فى اعتزاله وتفسيره وتأويله ، وتأسيس كل شىء على العقل ؛ وأما فى أدبه فظهرت فى انطلاق أسلوبه ولغته .

وكما مثل الجاحظ حرّية الفكر فى عصره ، مثل أيضاً نتيجة تلك الحرية وهى مزدوجة : نتيجة حسنة هى ازدهار العلوم العقلية ، ونتيجة سيئة هى الانحلال فى العقيدة والأخلاق. فمثّل الجاحظ فى آثاره تشعب الحركة الفكرّية ، وانطلاق العلوم واتساع الآفاق ، والبحث العلمىّ المؤسس على العقل ؛ وقد أخذ من كل علم بطرف حتى خاض فى أبواب شتى من الاجتماع والأخلاق ، والتربية والتعليم ، والطبيعة ، والتاريخ الطبيعى ، وفلسفة اللغة وما إلى ذلك . ومثّل الجاحظ من جهة أخرى الأخلاق والعقائد وأظهر انحلالها فى فئات من أهل عصره ، فصور حيل التجار ، وخزعبلات المتسولين وسخافات الشبان المتخنثين ، وزندقة المتزندقين وما أشبه ذلك من ضروب الفساد .

(ـ) رواج الجاحظ عند أبناء عصره :

كان الجاحظ أستاذاً فى عصره يلقى دروسه على العالم العربى بأسره . وقد لقى رواجاً عظيماً لسعة علمه ، وكثرة مؤلفاته ، واعتزاله وجرأته فى النهوض على التقاليد ، تلك الجرأة التى وفرت له الأعداء والأصدقاء ، ونظره النقدى المقعّد على المعقول والتجربة ؛ واتساع آفاق موضوعاته إذ كان كل إنساناً يجد فيها ما يروقه ، والتنوع الذى كان يبعد السأم ، وتصوير أخلاق العصر وفئات الناس — وهذا النوع من الأدب كثير الرواج — وأسلوبه السخرى ومزجه الجدّ بالهزل ، وتبسيط المسائل العلمية والفلسفية فى أسلوب واضح يصطبغ بالصبغة العربية . وهكذا أوجد الناس صلة بينهم وبين ما مثل لهم الجاحظ ، بخلاف ما وجدوا عند ابن المقفع الذى قدّم لهم أدباً وُضع لزمان غير زمانهم وشعب غير شعبهم . وقد أعجب الناس بابن المقفع قبلا لأنهم رأوا فى كتبه شيئاً جديداً

لم يكن لهم عهد بمثله ولأنها كتبت بلغة سمحة تملأ الصدور جلالا . أما فى هذا العصر فقد آثروا كتب الجاحظ لأنها أكثر استنباطاً ، وأبرز شخصية ، وأوسع مادة ، وأبرع فنًّا ، وأقرب إلى حياة الشعب .

(د) أثر الجاحظ فى الأدب العربى :

إن شخصية الجاحظ قد استهوت الأدباء فى عصره وبعد عصره ، فكان للرجل أثر كبير فى الأدب العربى . وكان هذا الأثر حسناً من جهة ، سيئاً من جهة أخرى .

كثُر طلاب الجاحظ والمتتلمذون له . فمنهم من لخصوا بعض آثاره كما فعل عبد اللطيف البغدادى (١١٦١ — ١٢٣١م / ٥٥٧ — ٦٢٩ هـ) . الذى لخص كتاب الحيوان فى مؤلف سمّاه « اختصار كتاب الحيوان » ، وكما فعل ابن سناء الملك الشاعر المصرىّ (١١٥٥ — ١٢٥٩ / ٥٥٠ — ٦٥٨ هـ) . الذى لخص الكتاب نفسه وسمّاه « روح الحيوان » .

ومنهم من حاكى الجاحظ فى تأليفه فحفلت كتبهم بمختلف الموضوعات وحفلت بالاختلاط وسوء الترتيب . ونذكر من هؤلاء ابن قُتيبة (٨٢٨ — ٨٨٩م / ٢١٣ — ٢٧٦ هـ) صاحب « عيون الأخبار » ، وأبا العباس المبرّد (٨٢٦ — ٨٩٨ م / ٢١٠ — ٢٨٥ هـ) صاحب « الكامل » ، وابن عبد ربه (٨٦٠ — ٩٤٠ م / ٢٤٦ — ٣٢٨ هـ) صاحب « العقد الفريد » ، وأبا بكر الصُّولى (٩٤٦ م / ٣٣٥ هـ) صاحب كتاب « الأوراق فى أخبار الخلفاء والشعراء » ، والآمدى (٩٨١ م / ٣٧١ هـ) ، وابن الفقيه الجغرافىّ (القرن العاشر) والثعالبى (٩٦١ — ١٠٣٨ م / ٣٥٠ — ٤٢٩ هـ) صاحب « يتيمة الدهر » ، والبيهقى (القرن العاشر) صاحب « كتاب المحاسن والمساوئ » والقزوينى (١٢٠٨ — ١٢٨٣ م / ٦٠٥ — ٦٨٢ هـ) والدّميرى (١٣٤٩ — ١٤٠٥ م / ٧٥٠ — ٨٠٨ هـ) صاحب « حياة الحيوان الكبرى » .

وقد تكون رسالة التربيع والتدوير من عوامل ظهور فن المقامات فى الأدب العربى .

وكيفما كان الأمر ففضل الجاحظ على الأدب العربى فضل جمٌّ . فقد قرّب الفلسفة والعلوم إلى كل ذهن ، وصاغها صياغة أدبية مزج فيها كلام أرسطو بأشعار الجاهليين ، وأقوال الفلاسفة بأقوال الأدباء ، وجعل اللغة العربية لغة الحياة التى تنطق بكل علم وتعبّر عن كل فن .